# ملامح الفنون الزخرفية العراقية في الفن العربي الإسلامي

أ.د. صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب / جامعة بغداد

لقد شهد العراق العديد من الحضارات الإنسانية في عصورها شتى وساهم فيها بنصيب كبير ، وقد أفصحت هذه الحضارة عن نفسها بما خلفته وراءها من آثار شاخصة وتحف منقولة في الفنون التشكيلية المختلفة . ترى ما هو نصيب العراق في تكوين شخصية هذا الفن ؟ الواقع أن الفنانيين العراقيين كان لهم دور واضح في إبراز شخصية هذا الفن.

لقد حقق العراق مكانة متميزة تتجلى في نشاطها الفني والحضاري والثقافي والعلمي وتبوأ الموقع الذي وضعه في مركز حضاري حقق له الشهرة التي يستحقها والحركة الفنية والصناعية التي ازدهرت في رحابه والحركة الفنية والصناعية التي خلفت روائع من التحف الفنية التي طرزت بمختلف الزخارف.

وقد شهد العراق تفوقاً كبيراً في نطاق الصناعات الفنية بعد أن بقيت مهارة العراقيين في الصناعة والفن مثار إعجاب الأمم وهم يقفون على فنونها الزخرفية ويطلعون على البراعة الفذة التي تميزوا بها.

وقد جاءت مكونات الفن العربي في كل قطر من الأقطار أو مدينة من مدنه مساهمات ذلك القطر أو تلك المدينة على مدى العصور العربية الإسلامية المتتالية .

ومما يجمع التحف العربية الإسلامية طابع خاص يتميز به الفن العربي الإسلامي عن غيره من الفنون السابقة له واللاحقة عليه . ويجعلنا نشعر لأول

وهلة بأن هذه التحف تنتمي إلى وحدة فنية واحدة تربط بينها بالرغم من بعد الشقة بين البلاد التي انتجت فيها والعصور المختلفة التي ترجع إليها ، ومع ذلك فأننا نلاحظ في هذه التحف التنوع العظيم في الأساليب الفنية وفي الموضوعات والعناصر الزخرفية التي ازدهرت في البلاد العربية الإسلامية بحيث يختلف الأسلوب الفني في كل بلد عنه في بلد آخر وأننا لذلك نستطيع أن نتحدث عن الفنون الزخرفية العراقية في العصر الإسلامي الذي تطورت في العراق واتخذت لها طابعاً خاصاً شأنها في ذلك شأن الفنون الزخرفية في البلاد العربية الإسلامية الأخرى .

وفي هذا البحث دراسة عن الفنون الزخرفية العراقية المتمثلة في الفنون العربية الإسلامية وإبراز الملامح والخصائص الأصلية لتلك الفنون ، فقد كان لمساهمات الفنان العراقي أثر كبير في تكوين شخصية الفن العربي الإسلامي ، وهذا ما تبرزه بوضوح الآثار العربية الإسلامية وتوضحه في جميع معطياتها الفنية على مختلف الأصعدة ، وهو ما حدا بالكثير من الأقاليم والمدن العربية الإسلامية الأخرى أن تقتبس منه أو تتأثر بمنحياته واتجاهاته وأساليبه ، كما ظهرت آثار الفنون الزخرفية العراقية واضحة وبارزة في الفنون الأوربية ، وذلك من خلال التأثر بالفنون العربية الإسلامية المتأثرة أصلاً بالفنون الزخرفية العراقية.

وعند إلقاء نظرة فاحصة على مفردات وعناصر الأعمال وجدنا أن كثيراً من عناصر الفن العربي الإسلامي وأصالتها قد ظهرت فيه بارزة وواضحة ويمكننا بناء على ما تقدم أن نعزز معطيات كل مدينة من المدن العربية الإسلامية وما اتسمت به من سمات ذلك الفن العريق . ولهذا إنطلاقاً من هذا المبدأ سيكون تركيزنا في هذا البحث على الملامح البارزة التي أعطاها الفنان العراقي للأعمال الفنية العربية الإسلامية والتي تشكل الفن العربي الإسلامي .

وهو عطاء لا يخفي على الدارس والمتطلع إلى الأعمال الفنية العديدة بحيث شكلت ملامح بارزة في تكوين شخصية الفن العربي الإسلامي ، وهذا ما تبرزه بوضوح الآثار العربية الإسلامية وتوضحه في جميع معطياتها الفنية على مختلف الأصعدة.

ففي ميدان الكتابة أولى العراقيون اهتماماً خاصاً بها منذ أقدم العصور المعروفة ، فمن المعروف أن بلاد الرافدين كانت مهد الحضارات ، ويعود الفضل إلى السومريين والبابليين والآشوريين في تحقيق منجزات حضارية كثيرة أسهمت وبشكل فعال في تطور البشرية فكرياً ، وتقنياً ، ففي العراق القديم ، وعلى وجه الخصوص في بلاد سومر كان مولد كثير من تلك المنجزات المتمثلة في معرفة العراقيين القدماء لأقدم وسيلة للتدوين والتي عرفت بين المتخصصين بالخط الصوري السومري الذي يعد من أقدم الخطوط في العالم . وقد سمي بهذه التسمية لأنه كان في مراحله الأولى عبارة عن صور للأشياء المراد التعبير عنها من خلال الصورة المرسومة ولاسيما في رسم الإنسان وأجزاء الجسم وصورة الطير والسمكة والمدينة المتمثلة برسم صورها مع جزء من البرج والذي يعني كلمة مدينة ، وكذلك الحالة بالنسبة للتعبير عن بعض الأفعال مثل ذهب وأتى ، إذ كان يعبر عنها برسم صورة للقدم[١].

فالكتابة الصورية إذن تعد من أقدم أنواع الكتابة ، وظلت مستعملة إلى نحو منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم استبدلت بالكتابة المسمارية .

وقد استمر استخدام هذه الكتابة ، إذ استطاع بوساطتها العراقيون حفظ تاريخهم ومنجزاتهم على مر العصور ، ونقل ذلك التاريخ إلى الأجيال اللاحقة ، ويمثل اهتداء العراقيين القدماء إلى فكرة التدوين إنجازاً كبيراً ، سرعان ما انتشر في إرجاء واسعة في منطقة الشرق الأدنى[٢].

أما في العصر الأموي الإسلامي ، فأن اهتمام العراقيين في الخط لا يقل عن اهتمام من سبقوهم وكان للخط العربي مكانة مرموقة عند أهل العراق ، وفضل العراق في تطوير الخط العربي لا يحتاج إلى دليل ، ويكفي أن نذكر عبارة ((الخط الكوفي)) إذ هي تكشف في يسر عن مدى مساهمة العراق في هذا المجال (شكل ١) ولم يكتف الخطاطون في العراق بالخطوط بشكلها الطبيعي ، وإنما نشطوا في إبداع مختلف الرسوم الخطية ، ويتفننون في تصويرها على مختلف الآثار . وهكذا بدأت تظهر بين آونة وأخرى نماذج متعددة ، وجديدة وكان الخط الكوفي . وخط الثلث ، ومن الملاحظ أن هذه المرحلة التي مر بها الخط العربي هي مرحلة نهوض حضاري ، ولابد أن يرافق مثل هذه المرحلة ، نوع من الاهتمام البالغ والتأنق الملحوظ في رسم الخط وإيصاله إلى أذواق الناس ، فخرج من أطار الكتابة التقليدية التي تؤدي الغرض المطلوب ، إلى أغراض جمالية وترف ذوقي . ومثل هذا الشيء أصاب الفنون الأخرى ، الا أنه في الخط بلغ مرحلة بعيدة ، وفق فيها الخطاط العراقي مثل سلفه السومري إلى أشكال من الكتابة العربية تظهر لأول مرة في العصر العباسي ، من أبرزها الكتابة الصورية ، على هيئة صور ورسوم بوصفها حلية للخط والزخرفة ، وليس غرضاً مقصوداً . للكتابة مع المحافظة على روح المعنى والاستعانة بمعطيات التراث ، وهكذا بدأ يستعين بصور الإنسان والحيوان ، والنبات فيتخذ من الإنسان والطير مثلاً شكلاً من أشكال الكتابة ، وذلك لمناسبته جسم الطير لبعض الحروف ، وكذلك استعان بأجزاء من جسم الإنسان كالرأس واليد والساق في رسم بعض الحروف او أتخاذ رسوم لبعض الحيوانات دلالة على حروف معينة أو يتخذ جزء من جسم حيوان أو طائر يشكل منها حرفاً من الحروف العربية الاعتبارية جزءاً من كتابة . وهي مرحلة متقدمة من مراحل تطور الخطر العربي[٣] (شكل ٢).

أما في مجال الزخرفة فمما لاشك فيه أن صناع وفناني بغداد قد برعوا في هذا الجانب من الفنون ، وأكثر الزخارف ذيوعاً وأهمية في الفن العربي الإسلامي هي الزخرفة النباتية المعروفة بالرقش العربي أو (التوريق) والذي يسميها الأوربيون (بالارابسك) ويطلقون عليها أحياناً (لغة الفن العربي الإسلامي)[٤].

فقد اعترف علماء الفنون بأن هذه الزخرفة قد ولدت في سامراء حيث بدأت تلك الزخارف المحفورة على الجص بالظهور في سامراء وهي تحتفظ في مرحلتها الأولى بأساليب قديمة ، وذلك من ناحية أشكال العناصر وأساليب حفرها ثم انتقلت إلى مرحلة ثانية وهو ما آلت إليه في المرحلة الثالثة إذ اختفت تماماً وظهرت عناصر وأساليب جديدة لا تمت بالصلة لما كان مستخدم في المرحلة الأولى[٥].

والرقش العربي أو (الأرابسك) هي الزخارف المكونة من فروع نباتية ومتشابكة ، أساسها التواء النبات ولاسيما الورقة والساق كما أنها تنتفع من الخطوط انتفاعاً لا يقوم على التصور والخيال ، ونرى التوريق يلتف فيه العرق النباتي بورده وأوراقه وتتفرع منها الأغصان بشكل متناظر ومتقابل ومتكرر في حركة إيقاعية غاية في الجمال لملء الفراغات بشكل مدروس على المساحة المراد زخرفتها[٦] (شكل ٣) .

والتوريق لم يكن وحده عالم ذلك الفن ، إذ تدخل الكتابة في التزيين ، وكثيراً ما اجتمعت الزخارف النباتية والهندسية أو كانت خلفية تلتصق فوقها الكتابة ، وربما انتهت الحروف تشكيلات نباتية أو بخطوط مبسطة لصور الحيوانات والطيور[٧].

وبالنظر لأهمية هذا العنصر الزخرفي الذي ابتكره الفنانون العراقيون فقد حاول بعض المستشرقين – كعادتهم – تجريده من أصوله العربية ونسبة ذلك

الابتكار إلى الإغريق والرومان وهو قول تنقصه الأدلة العلمية الثابتة ، ويبدو أن هؤلاء المستشرقين لم يعرفوا الخصائص والسمات التي يقوم عليها هذا الفن ، فالرقش يرتكز مبدئياً على فكرة التجريد والتحوير عن الطبيعية ، كما يقوم على التناظر والتقابل.

لقد كان لفن الرقش العربي حضور متميز في فن الزخرفة في العراق خلال العصور العربية الإسلامية ، كما يتضح ذلك في الزخارف التي تزين أبنية سامراء في حدود القرن الثالث الهجري (٩ م) ولعل في النماذج التي وصلت إلينا على التحف المعدنية والمنسوجات والمخطوطات وغيرها لدليل على مكانة هذا العنصر الزخرفي لدى الفنانين العراقيين التي كتب لهذا العنصر البقاء خلال العصور العربية الإسلامية كلها مروراً بالعصر العباسي وحتى نهاية العصر العثماني وكان عنصراً بارزاً من عناصر الفن العربي الإسلامي .

ولكن الفن العربي الإسلامي لم يكن خطاً وزخرفة بل تصويراً ، والتصوير يتمثل لنا في الصور المسطحة ، كما يتمثل لنا في الصور المجسمة وكلاهما من أبرز نواحي الفنون الزخرفية وعلى الرغم مما نعرفه عن النظرة إلى التصوير في الإسلام ومراجعتهم فيه ، ألا أنه كان معروفاً في بداية العصر الإسلامي ، لكننا لا نستطيع أن نعطي تصوراً واضحاً لهذا الفن لعدم توفر النماذج لإعطاء تلك الصورة ، فالعرب لم يغفلوا هذا الفن بدليل أن رسول الله (ﷺ) عندما دخل يوم الفتح الحرم المكي كانت الكعبة مزينة بالصور والرسوم الدينية المختلفة .

وقد وصلت إلينا رسوم صور في عصر الخلافة الأموية مما يدل على وجود معرفة وإطلاع بهذا الفن ، فقد زينت القصور ودور الاستراحة بمختلف أنواع الصور مما يشهد على تقدم هذا الفن في هذا العصر ، وهذا لم يكن مفاجئاً وإنما كانت له جذور ، وتوجد إشارات في الشعر العربي تدل على روعة التصوير العربي بحيث يبدي الشاعر إعجابه به حتى يظن أن الصورة المرسومة

هي حقيقة لفرط ما فيها من زخرفة وحياة وقد وصلت إلينا رسوم جدارية من العصر العباسي ، وكذلك مصر فالتصوير كان معروفاً يمارس في ذلك العصر ، ومع قلتها فأنها تعطينها صورة واضحة إلى أن العرب عرفود ومارسود لكنهم أكثر ما اهتموا بالرسوم هو تزويق المخطوطات منها ما يتعلق بالطب والعلوم والحيل الميكانيكية وكتب الأدب مثل كليلة ودمنة ومقامات الحريري وكتاب الأغاني وكتب البيطرة[٨] وجميع هذه النماذج جاءت رسومها موضحة لمتون المادة أو النص الوارد في المخطوط ، ويمكننا أن نقول أنهم وصلوا إلى درجة بحيث ظهرت مدارس مثل مدرسة بغداد للتصوير ، وقد وصل التصوير الإسلامي الذروة في رسوم المقامات التي أنجزت ببغداد وتمتاز بالجهد الكبير والمتنوع مما يدل على عبقرية ومهارة للفنان العربي الإسلامي .

ومدرسة بغداد تعد أول مدرسة في تزويق المخطوطات وأن أهم الكتب العلمية التي ذاع تزويقها كتاب البيطرة الذي نسخ وزوق فيها سنة ٦١٥ هجرية[٩] . وموضوعات التزويق تتناول رسوم الخيل هي وسائسو ها ، وكذلك كتاب الترياق زوق بالتصاوير وكتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل)[١٠] لأبن الرزاز أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ومن أكثر الكتب والمخطوطات التي أقبل الرسامون على تزويقها هو كتاب المقامات وأكثرها كتاب مقامات الحريري وأقدم مخطوطة للمقامات المصورة مؤرخة في عام ٦٣٤ هجرية كتبها وزوق تصاويرها يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي[١١] ، وهذه التصاوير أبدع ما وصل إلينا من تصاوير بغداد والواسطي الذي يعدّ رساماً من الطراز الأول تمتاز صوره بالواقعية ورسومه عبارة عن سجل للحياة في العصر العباسي وهو في نظم الدارسين الا أن رسومه في جمالها وقيمتها لا تقل عن رسوم كبار الفنانين العالمين والرسوم الأمية التي نلاحظها في مدرسة بغداد أنها لا تهتم بتشريحه ولا بدقائقه ولا بالنسب في تصوير أعضاء الجسم .

وما مهنا بصدد الحديث عن المقامة ، لابد من الإشارة إلى أن الفنان العراقي يحيى بن محمود بن الحسن الواسطي الذي حدد لنفسه طريقة خاصة كان من أوائل الفنانين الذين أبدعوا في المهارة وبرعوا في الطريقة لإبراز مظاهر التأثير وتجسيد ملامح التعبير ، وقد انعكست هذه القدرة في إمارات الفرح أو الحزن أو التعجب أو الدهشة بدلالة النظرة وإشارة اليد وحركة الجسم كما تجسد لأول مرة في هذا التوظيف سلامة الفنان في إعطاء الصورة قدرتها من خلال مزج الألوان وطريقة استخدامها ، وقد كان الواسطي موفقاً في تصوير أوضاع المجتمع ونقد أحواله والكشف عن المعتقدات الباطلة التي أحاطت به ، فإيمان الناس بالتمائم واعتقادهم بقدرة هذه التمائم على العلاج كانت موضوعاً بارزاً واستبعاد الإنسان واستغلاله بما يفقد إنسانيته واستهلاكه كانت موضوعاً آخر وظف الفنان له جانباً من فنه ، فالمقامات الحريرية لوحة فنية متكاملة في حياة الواسطي ، واستحالت عبارات أصحابها إلى نماذج بارعة استغرقتها أفكار هذا الفنان وطعمتها ريشته التي استطاعت أن تضع بصماتها بقدرة وتمكن ، حتى برزت مظاهر العمارة بوضوح فكانت المساجد والمآذن والقباب وكانت المنازل والنوافذ وكانت الخانات والأسواق والكتاتيب والسفن الشراعية وحوانيت الباعة ، وكانت الأشكال الأخرى التي عاشت في الواقع العربي صوراً لها مكانتها وقد ازدانت بالزخارف ولونت بالنقوش وكما كانت الأشكال الكبيرة تأخذ حجمها في زوايا وأواسط الصورة فقد كانت الأشكال المعمارية المكملة تبرز بوضوح في الهيكل العام لها ، فالأعمدة عناصر استخدمها الرسام في تثبيت اللوحة واستخدامها في تزيينها وزخرفتها وجعل قواعدها أشكالاً زخرفية تتعانق فوقها المنحنيات وتشد أواسطها الأقواس وكذلك المحاريب التي ظلت عنصراً واضحاً في صور المقامات والمآذن الأسطوانية الرشيقة التي أخذت امتدادها المتميز وشموخها الفني الرائع وهي تقف بآباء وكبرياء ورشاقة ومثلها العناصر المعمارية الأخرى المتداخلة في البناء والزخارف الهندسية والمنحنيات المتعاقبة

والأقواس المكررة وهي استخدامات توحي بقدرة هذا الفنان العراقي[١٢] (شكل ٤).

وإلى جانب ما تقدم فقد كشفت الحفائر التي أجريت في سامراء على صور مائية مرسومة على الجص ترجع إلى العصر العباسي.

ويمثل طراز سامراء أسلوباً عربياً إسلامياً انتشر في مراكز الخلافة العباسية في العراق إلى سائر أنحاء العالم العربي الإسلامي وكانت مصر من الأقطار التي ظهر فيها بشكل واضح صدى طراز سامراء في العمارة والجص والزخرف والتصوير . ولقد وضح هذا التأثير منذ أن جاء إلى مصر سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م أحمد بن طولون الذي نشأ في سامراء وحكم مصر خلال العصر الطولوني[١٣].

ولم يقف فن التصوير الذي عرفته سامراء على مصر ولكنه انتشر أيضاً مع انتشار نفوذ الفاطميين وحضارتهم ولقد تردد صدى هذا الأسلوب في صور الكابلا بالاتينا في بالرمو بجزيرة صقلية وترجع زخرفة جدران هذه الكنيسة وسقفها بالصور إلى عهد الملك النورماندي روجر الثاني[١٤].

والحق أن كثيراً من صور هذه الكنيسة لها ما يشبهها في الصور الفاطمية وكذلك في رسوم سامراء التي تعدّ الأساس الذي تطور منه الأسلوب الفاطمي[١٥].

أما في ميدان صناعة التحف المعدنية فأن العراق كان في طليعة الأقطار التي ازدهرت فيها هذه الصناعة بعد الفتح العربي إذ وصلت وحلت هذه الصناعة على أيدي العراقيين إلى درجة من الإتقان وساروا بها قدماً إلى الأمام سواء أكان ذلك في الشكل أم الزخرفة أم طريقة الصناعة . وقد استخدموا في صناعتها مواد مختلفة وكان استخدام الذهب والفضة والبرونز والحديد في مقدمة المواد المستخدمة في تلك الصناعة ، وقد كانت كل مادة من هذه المواد تدخل في

المضمار الذي يناسبها في صناعة التحفة وبعض هذه التحف قد يضطر الصانع إلى مزج مادتين أو أكثر ليستخرج منها التحفة التي يروم إنتاجها.

وقد اتخذ الصانع العربي والمسلم إلى هذه التحف المعدنية وإخراجها إلى حيز الوجود طرائق تتناسب مع العصر الذي ظهرت فيه ، لأن هذه الطرائق تمثل خطاً تطورياً في إنتاج التحفة العربية ، ويبدو من واقع الحال أن أقدم هذه الطرائق هي الطرق (بفتح الطاء وسكون الراء) ويدل عملها على بساطة استخدامها إذا قيست إلى الطرائق الأخرى التي سنذكرها ، وتلخص عملها في أن الصانع يلجأ إلى دق المعدن وهو لم يزل على شكل صفائح لينقش عليها الشكل المراد أو الزخرفة المطلوبة[١٦].

أما الطريقة الثانية فهي معروفة بالحفر ويمكن تلخيصها بأن يلجأ الصانع إلى تشكيل المادة الأولية بالشكل المطلوب للآلية المراد زخرفتها مستعيناً بالنار مثلاً لتثبيتها بعد ذلك تبدأ عملية الحفر للزخارف المراد نقشها ثم تملأ بمادة المينا الباردة ليتم تجسيد ذلك الزخرف[١٧].

والطريقة الثالثة في صناعة وزخرفة التحف المعدنية العربية الإسلامية هي ما تعرف بالتكفيت وهو أسلوب عربي عراقي قوامه حفر رسوم على سطح المعدن ثم القيام بملء تلك الزخارف المحفورة بمادة أخرى كالذهب والفضة والنحاس الأحمر[١٨] ، وهذه الطريقة يمكن النظر إليها على أنها قمة فن صناعة التحف المعدنية وزخرفتها وأصبحت بعد ذلك من أهم المميزات للتحف المعدنية العربية الإسلامية بحيث عرفت في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي والأوربي حيث انتجت المصانع الأوربية في عصر النهضة نماذج من تلك التحف تحاكي في صناعتها وزخرفتها ونقوشها التحف المعدنية العربية .

ورابع الطرائق في صناعة التحف المعدنية هي طريقة الزخرفة بالمينا وهناك طريقتان :

الأولى وتعرف بالمينا ذات النصوص ، وتتم بصب المينا وهي عبارة عن مادة زجاجية مخلوطة بأكاسيد في تجاويف سطح التحفة المراد زخرفتها في حواجز معدنية رقيقة تلتصق بالمعدن في مكان الزخرفة فتبدو الأواني كأنها مطعمة بأحجار كريمة(١٩).

أما الطريقة الثانية فتدعى بطريقة الحفر ويجري فيها وضع المينا في التجاويف المذكورة سابقاً مكان الزخرفة ثم توضع التحفة في النار لتثبت وتكتسب بريقاً زجاجياً(٢٠).

دخلت صناعة التحف المعدنية حياة الإنسان ، فاستخدمها في توفير مستلزماته اليومية فضلاً عن القيم الجمالية ، فكان يجمع في بعض الأحيان بين استخدامها الأساسي وبين ذوقه الفني بإضافة مسحة جمالية إلى مظهر تلك التحفة وبهذا وصلت إلينا نماذج من هذه التحف يمكننا النظر إليها إلى أنها غاية في الفن والذوق والإبداع الذي يتجلى لدى الفنان أو الصانع وقد وصلت إلينا مجموعة منها موزعة الآن في متاحف العالم المختلفة وفي المجموعات الخاصة وأماكن أخرى عربية وإسلامية تعود إلى عصور مختلفة ومن هذه التحف الأباريق والصحون والمحابر والصناديق والشماعد والمزهريات والمباخر والمرايا والمبارج وهذه جميعاً وغيرها مما قد يكون فاتنا ذكره موزعة في الأماكن التي جئنا على ذكرها.

ولم يترك الصناع شيئاً يمكن استخدام مادة المعدن في حاجة ضرورية الا وحاولوا أن يخرجوا منها تلك المادة ، مثاله صنع مطارق الأبواب ، وقد جاءت بأشكال متنوعة ، ويوجد في متحف برلين نموذج من هذه المطارق التي تعود صناعتها إلى العصر العباسي في العراق(٢١) .

لقد كانت التحف التي حظيت بالزخرفة وذكرناها هنا تكون زخرفتها أما نباتية أو حيوانية أو كتابات أو أشكالاً آدمية أو هندسية ، ولم يكن الصانع يلزم

نفسه على شكل واحداً أو معين من هذه الأشكال وإنما كان يتفنن في رسم هذه الزخارف ، فتراه أحياناً يستخدم النباتية منها وأحياناً أخرى يجمع بين النباتية والكتابية وقد يضيف إليها الأشكال الهندسية وقد يكتفي بالرسوم الآدمية في تحف معينة أو ربما اقتصرت الزخرفة على الكتابات فقط ، وهكذا بحيث نشعر أن التحف أعطت انطباعاً على مهارة الصانع وكيفية استخدامه للمادة وتوزيع الزخرفة عليها .

وهذه التحف وما عليها من أشكال الزخرفة ظهر على بعضها أماكن صنعها وصناعها أحياناً لكن البعض الآخر جاء غفلاً من ذلك لكنها صناعة عربية إسلامية أنتجتها مراكز الصناعة التي كانت منتشرة في مختلف انحاء العالم العربي الإسلامي وإذا شئنا أن نشير إلى أبرز هذه المراكز فنلاحظ أن العراق في العصر العباسي كان في مقدمة هذه المراكز لأنه مركز الخلافة التي ازدهرت فيها الفنون والصناعة وتعد مدينة الموصل في مقدمة المدن العراقية التي ابتكر فيها النوع المعروف بالتحف المكفتة الذي يعد قمة ما وصلت إليه هذه الصناعة في عالم الفنون الزخرفية في الفن الإسلامي وتشكل معلماً بارزاً في تلك الفنون[٢٢] (شكل ٥) .

أما العراق فقد كان من الأقاليم التي راجت بها صناعة المنسوجات وإنتاج اللباس المختلف منذ العصر الإسلامي ، وقد جاء على لسان المؤرخين أقوال متعددة عن شهرة العراق بصناعات المنسوجات ويذكر أبن الفقيه[٢٣] ثياب بغداد القطنية الراقية منقطعة النظير . وكان بها محلة تسمى بدار القطن[٢٤] ويذكر الأصطخري[٢٥] ما كان للثياب من سمعة طيبة ، حتى أن بعض الثياب التي كانت تعمل في بعض الأقاليم كان يكتب عليها اسم بغداد على سبيل التدليس[٢٦]. ومن مدن العراق التي اشتهرت بإنتاج النسيج (الابلة) التي اشتهر أهلها في صنع الثياب الراقية المعمولة من نسيج القصب[٢٧] . وكذلك ازدهرت في هذا الإقليم

صناعة نسيج الخز ، إذ أنتج الكوفيون عمائم الخز[٢٨] . ويبدو أن بغداد كانت ذات شهرة في إنتاج العمائم حيث كانت تصدر إلى خارج العراق ، وانتجوا كذلك الربط الكوفية منذ العصر الإسلامي[٢٩] وتعتبر واسط من المراكز المهمة في إنتاج القلانس الجيدة[٣٠].

وكانت بغداد تنتج الطيالس فاشتهرت بها ، وكان لها سوق يعرف بسوق الطير ، حيث ذكره بعض المؤرخين[٣١] ((بأنه كان فيه أصحاب الطيالس وفاخر الملابس)).

وإلى جانب ذلك برزت بغداد بإنتاج الأزر الرشيدي[٣٢] وألوان ثياب القز[٣٣].

أما الثياب التسترية فكانت من نصيب محلة التستريين[٣٤] إحدى محلات بغداد ، وهي ثياب تصنع من الحرير والديباج[٣٥].

ومن محلات بغداد الأخرى دار القز التي اختصت بإنتاج نسيج القز الذي يصنع منه أنواع من الثياب يقال لها القز[٣٦] . ويبدو أن هذه المحلة قد استمرت في إنتاجها في هذه الثياب حتى سقوط الدولة العباسية.

وذاع صيت محلة أخرى ببغداد تدعى بالعتابية[٣٧] ، حيث اختصت في إنتاج ما يسمى ((بالعتابي)) وكانت أن وصلت شهرة هذا النسيج إلى درجة أن تسربت صناعته لعدد من المدن الإسلامية من ضمنها بلاد فارس ، وكان لأصفهان الحظوة الأولى من بين المدن الفارسية في إنتاج العتابي[٣٨] حتى أن أبن الفقيه[٣٩] أطلق عليها اسم ((بغداد الثانية)) حيث انتجت فيها العباءات المخططة باللون الأحمر القرمزي.

وقد امتدت شهرة هذه الثياب إلى مدن أخرى مثل مدينة المرية بالأندلس حيث كان فيها سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) (٨٠٠) مغزل لنسيج الحرير ، وكان من بين المنسوجات الحريرية الثياب العتابية[٤٠].

وكان من نتيجة السياسة التي اتبعت في العالم الإسلامي في فسح المجال أمام الصناع للأشغال بحرية في مختلف الأقطار المفتوحة التابعة للدولة الإسلامية أن ذهب جماعة من نساجي بغداد إلى مصر وانشأوا فيها مصانع اختصت بنسج المنسوجات البغدادية كالعتابي[٤١]. ويرى الدكتور مرزوق[٤٢] أن ظهور هذا النوع من النسيج مما تؤيده الوقائع التاريخية ، فقد ثبت أن العلاقة بين العزيز بالله الخليفة الفاطمي وعضد الدولة أبن بويه الذي كان إليه أمر الخليفة العباسي في بغداد (٣٦٧-٣٧٣هـ) كانت في أول أمرها على أحسن ما يكون وقد اعترف عضد الدولة للعزيز بصحة نسبه وبأنه في طاعته وليس ببعيد أن يكون ثمار هذه العلاقة الطيبة وفود كثير من نساجي بغداد إلى مصر وإنشاءهم مصانع النسيج المذكورة.

وقد شاركت نيسابور وبغداد في إنتاج ما يسمى بالعتابيات[٤٣] ، وكذلك همدان كما شاركتها مدينة أصفهان[٤٤].

ولم تفقد المحلات البغدادية سمعتها طيلة العصر العباسي في إنتاج المنسوجات المختلفة كالعتابية والتسترين ودار القز . وقد أشار أبن جبير[٤٥] إلى محلة العتابية في أثناء زيارته إلى بغداد (٥٨٠) هـ إذ قال : ((محلة العتابية ببغداد كانت من أزهى المحلات ، حيث كان يصنع فيها الثياب العتابية الزاهية)) (شكل ٦) .

ويذكر أبو الفداء[٤٦] عن النسيج العتابي أن الملك الأشرف موسى بن الملك العادل توجه إلى دمشق راجعاً إلى البلاد الشرقية ، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الطاهر وأنزله بالقلعة . وكان يحمل إليه في كل يوم خلعة. وفي كل واحدة منها خمسة أثواب عتابي وبغدادي موصلي .

ونالت الثياب البغدادية شهرة عظيمة حتى كانت من ضمن الهدايا التي تقدم إلى الخلفاء في أحسن المناسبات[٤٧].

وذاعت شهرة بغداد في إنتاج الثياب البيضاء وهي مصنوعة من القطن ذي اللون الأبيض ، وقد ذكر هذه الثياب الرحالة الصيني CHANG-CHUN وقد شارك أبن الفقيه[٤٨] الرحالة المذكور في ذكر هذه الثياب إذ قال ((ثم قل من عجائب ما شئت التي اجتمع فيها ما هو متفوق في جميع الأقاليم من أنواع التجارات والصناعات ، ولهم الذين لا يشركهم فيه أحد الثياب البيض . ولم تكن مدينة حربي[٤٩] أقل شهرة من غيرها في إنتاج الثياب القطنية ، فقد ذكر ياقوت[٥٠] أنه كانت تنسج في حربي الثياب القطنية الغليظة التي تحمل إلى سائر البلاد .

وكانت تصنع في العراق الأبراد[٥١] والدراريج[٥٢] التي كانت تصنع من الوبر[٥٣] . وكذلك كان يصنع فيها اللباس الصوفي والطيالس السود التي أطلق عليها اسم السيجان ، وجاء ذكر للسيجان في بعض أشعار مجنون ليلى :

ولم تغن سيجان العراقيين نقره　　ورقش القلنسر بالرجال الأطاول[٥٤]

وكان يرتفع من العراق نسيج يعرف بالسجلاط[٥٥] . أما سامراء فقد اشتهرت منذ عصر المتوكل بإنتاج نوع من الثياب عرف بالمتوكلية نسبة إلى الخليفة المذكور.

وانتج العراقيون أيضاً نسيجاً باسم المصمت ، عملت منه مختلف أنواع اللباس.

وانتجت مصانع بغداد نوعاً آخر من الثياب عرفت باسم ثياب السقلاطون وهي من الثياب المشهورة ، فكان الخلفاء يتهادون بها وكان الثوب الواحد منها يباع بخمسة دنانير[٥٦] . وصار يضرب بها المثل بالجودة فيقال ((سقلاطون بغداد))[٥٧].

وقد شاركت مدينة أصبهان العراق في إنتاج هذا النوع من الثياب[٥٨] ولم يقتصر الأمر على اشتغال صناع النسيج بين الأقطار الإسلامية ، بل تعدى ذلك إلى تصدير المنسوجات نفسها ، وكان الطلب على الثياب البغدادية قائماً في مدينة الفسطاط والأشمونين ، وفي الوقت نفسه كانت منسوجات كل من مدينة دبيق وتنيس ودمياط تصل إلى بغداد[٥٩] . وقد وصل الأمر حدا أن أطلق اسم دبيق المصرية المشهورة على إحدى قرى بغداد[٦٠].

وقد اشتهرت منطقة الحظيرة[٦١] بإنتاج نسيج يعرف باسم الكرباس الصفيق[٦٢] يحملها التجار إلى البلاد الأخرى . وكان يصنع في قرية باقدارى نوع من الثياب القطنية[٦٣] . أما قرية الكرخ فكان يرتفع منها الثياب الابريسمية ذات الجودة والمتانة[٦٤].

وبرزت مدن أخرى إلى جانب ما ذكرناه في إنتاج النسيج فمن بين هذه المدن الموصل التي انفردت بإنتاج نوع خاص من المنسوجات الحريرية عرف باسم (الموسلين) أو (الموصلي) التي كانت تصنع فيها أنواع الثياب ، وقد ذاع هذا النسيج واشتهر لدى الأوربيين باسم (Muslin) .

كما حازت الموصل أيضاً على شهرة عظيمة في إنتاج نوع من النسيج عرف باسم الشاش . وكان النسيج الموصلي يصدر إلى الأقاليم المختلفة ، ويتخذ الناس منه عمائم ثمينة ، ويذكر ماركو بولو[٦٥] ((أن النسيج الموصلي كان يصدر إلى الصين ويتخذون منه العمائم الثمينة)) .

واختصت مدينة خانقين في إنتاج الأنسجة منذ العصور الإسلامية الأولى وقد بلغ من شهرة منسوجاتها أن أطلق عليه اسم الثوب الخانقيني[٦٦].

**الفسيفساء:**

حرص الإنسان العراقي في بلاد الرافدين ، عندما يعيش في الكهوف على أن يزين جدران كهفه بصور الحيوانات التي كان يعيش عليها اعتقاداً منه بأن تمثيلها على جردان الكهوف يمكنه من السيطرة عليها ، لذلك جاءت بعض هذه الصور تمثل حيوانات أصيبت بنبال أو سهام أو أي سلاح آخر كان يستخدمه الإنسان يومئذ.

كان هذا بالنسبة للعصور الحجرية القديمة ، أما بالنسبة للعصور التاريخية الأولى فأن الأهداف الرئيسية من الرسوم الجدارية كانت ولاشك الزخرفة والزينة ، وتخدم في الوقت نفسه أغراضاً تعبدية وشعائرية . وأقدم ما اكتشف من صور جدارية مهمة لهذه العصور في تل العقير (٣٥٠٠ ق.م) التي نقبت فيه مديرية الآثار العراقية في عام ١٩٤٣ . حيث عثرت على مصطبة مزينة بصور آدمية ورسوم فهود ونمور[٦٧].

وقد تطورت هذه الرسوم الجدارية لدى الإنسان مع تطوره في الحياة فأخذت شكل البيئة الجديدة التي كان الإنسان ينتقل إليها عندما غادر كهفه . والتي في السهول والوديان ، فأخذ بأسباب المدينة الجديدة حيث عرف السكن المبنية باللبن المشوي والحجارة والطابوق ، فكان طبيعياً أن تأخذ الرسوم الجدارية شكل هذا التطور.

فلما عرف الإنسان مادة الطلاء توصل إلى فن التزجيج وبدأ يستعمل الطابوق المزجج في إخراج الأشكال الزخرفية الملائمة لذوقه وذوق العصر يومئذ.

ولقد انتشرت عبر العصور هذه الطرائق لتزيين الجدران . وقد كان لفن الرسوم الجدارية في حضارة بلاد الرافدين امتداداً إلى العصر الإسلامي ، حيث استخدم الفنان العراقي في هذا العصر طرائق متعددة في تزيين وزخرفة الأبنية

الدينية منها والمدنية كالرسوم بالألوان المائية والفسيفساء واستخدام الطابوق في إبراز الأشكال الزخرفية المطلوبة ، كما اتخذوا طريقة استعمال البلاطات الخزفية أو تربيعات القاشاني للغرض المذكور .

والفسيفساء من الفنون التي زاولها العراقيون في العصر الإسلامي وقد ذاعت هذه الطريقة واستخدمت في زخرفة وتزيين جدران وأرضيات الأبنية المختلفة(٦٨).

والفسيفساء فن زخرفي يتمثل في قطع صغيرة الحجم تصاغ في ضمن قوالب معينة قد تكون من الزجاج الملون ، ومن الصدف أو الأجر أو البلور بألوان مختلفة ثم تجمع القطع التي يتكون منها الشكل بعضها إلى بعض ، وتثبت بالجص أو الملاط . (شكل ٧) .

وإذا أردنا أن نتتبع الجذور التاريخية لصناعة أو فن الفسيفساء ، فأننا نستطيع أن نقول أن أصل فكرة الفسيفساء مصدرها العراق ، وفي مدينة بابل ، حيث استخدم البابليون في تزيين جدران الأبنية بأشكال من الطابوق المزجج ذات الرسوم المختلفة وأن الخبرات الفنية الأولى في هذه الاتجاه لهذه الصناعة يمكن إرجاعها إلى عصر أقدم ، معتمدين المخاريط الفخارية ذات الرؤوس الملونة التي شكلت منها موضوعات زخرفية ذات أشكال هندسية متعددة اكتشفت نماذج منها على الجدران الخارجية لمعبد الوركاء(٦٩).

وهذا الأسلوب في الصناعة قد تطور بشكل واضح في الأجر المزجج الذي شكلت فيه موضوعاً في غاية الدقة والجمال في باب عشتار ، وجدران شارع الموكب ، وقاعة العرش في بابل .

ويبدو واضحاً أن هذه الصناعة قد انتقلت إلى الأخمينيين الذين حكموا العراق خلال القرن السادس قبل الميلاد ، واقتبسوا كثيراً من عناصر الحضارة العراقية القديمة ، وكان من بينها فن التزجيج . وكان للأخمينيين صلات مع

اليونان والتي وصل فيها الاخمينيون إلى قلب أثينا . وبذلك يمكننا اعتماد ذلك دليلاً على انتقال المؤثرات العراقية عن طريق الاخمينيين إلى بلاد اليونان[٧٠].

ويمكن ان نستخلص من كل ما سبق ذكره أن فكرة الفسيفساء إنما هي ابتكار يعود بالدرجة الأولى إلى الأعمال الفنية التي أشرنا إليها في العراق ، ولم يبتكرها اليونان كما يدعي بعض الباحثين.

وقد تطورت هذه الصناعة بصورة تدريجية فظهرت الفسيفساء . ويعد استخدام الفسيفساء تطوراً طبيعياً لاستخدام الطابوق المزجج ، لأن الصناع أخذوا في تصغير حجم الطابوق أقل قدر ممكن حتى تتعدد الألوان وتكون الصور الملونة أكثر بهجة والتفاصيل أكثر وضوحاً .

ولقد عرف العرب المسلمون الفسيفساء منذ العصور الأولى ، واتخذوها في تزيين وتحميل العمائر الدينية والمدنية مثل المساجد والقصور والحمامات وغيرها[٧١].

كما أشارت الكتب في بعض مواضعها التي أزدهار صناعة الفسيفساء في العصر العباسي ، زمن الخليفة المعتصم الذي بنى قصراً وجعل فيه إيواناً منقوشاً بالفسيفساء كما أشارت الكتب إلى أنه كان في دور أحد الأمراء في العصر العباسي حمام فيه خلوات مصورة بفصوص حمر وخضر ومذهبة متحدة من بلور[٧٢].

ومن الفنون الزخرفية العربية الإسلامية التي يفخر الفنانون العراقيون بها هي الأخشاب المزخرفة ، والتحف الخشبية التي وصلتنا من العصور الإسلامية تؤكد بأن الخشب من المواد الهامة التي فتحت ميادين واسعة للتطور والابتكار بالنسبة للفنون الزخرفية ، حيث تشير المعلومات إلى أن صناعة الأخشاب لقيت تشجيعاً خاصاً في الأقاليم الإسلامية المختلفة منذ بداية العصر

الإسلامي تبعاً لحاجة الإنسان إلى المنتوجات المصنوعة من الخشب مثل السقوف والشبابيك والمنابر والأثاث المنزلي المزخرف.

والواقع أن كميات كبيرة من تلك التحف قد فقدت على مر العصور ، ويعزى السبب في ذلك إلى العوامل الطبيعية وبشكل خاص الحريق ، كما ساعدت على ذلك أيضاً الحروب والاضطرابات السياسية بفعل نهب الأقوام الغازية وتخريبها، ومع ذلك فقد وصلت إلينا نفائس خشبية فنية نادرة ، وهي أما أجزاء قائمة في المباني لا تنفصل عنها مثل السقوف والقباب والأبواب والشبابيك والمنابر الثابتة والدواليب.

ومن خلال دراستنا للأخشاب الأثرية التي تتمثل في المنابر والأبواب ووسائل التعليم وكراسي المصاحف ومصاديقها والمناضد وغيرها. أن النجارين والفنانين قد اتبعوا طرائق وأساليب صناعية مختلفة يمكن أجمالها في ست طرائق هي الخز والحفر والتطعيم والتلوين والتجميع أو التعشيق والخرط[٧٣].

فالخز من أقدم الطرائق التي مارسها الإنسان في تزيين الأخشاب وزخرفتها غير أن العرب في العصر العباسي ابدعوا في هذه الطريقة بحيث تقدمت تقدماً ملحوظاً يمكن ملاحظتها من خلال الإنتاج للتحف المصنوعة[٧٤].

والطريقة الثانية التي استخدمها النجارون والصناع هي الحفر ، وكانت معروفة . ولكن عنصر الحداثة فيها أن العرب طوروها وكان لهم فيها أسرار بحيث توصلوا إلى أسلوب الحفر المائل والمشطوف[٧٥].

وهذه الطريقة في الزخرفة ظهرت لأول مرة في الطراز الثالث من الزخارف الجصية بسامراء ، ومنها انتشرت إلى العالم الإسلامي[٧٦].

والتطعيم هي الطريقة الثالثة في هذا الفن وهي أشبه بالتكفيت الذي كان يستخدم في التحف المعدنية ، واعتادوا في التطعيم أن يستخدموا مواد ثمينة

كالصدف والأبنوس ، وهذه الطريقة كانت معروفة أيضاً قبل الإسلام لكن العرب في العصر العباسي أضافوا الجديد عليها[٧٧].

والطريقة الأخرى هي التجميع أو التعشيق وملخصها أن الفنان كما يجمع قطعاً من الخشب بعضها كبير والآخر صغير يستخرج منها شكلاً جميلاً وزخرفياً بديعاً يتجلى فيها الإبداع والفن . ويقرر واقع الحال أن هذه التحف المصنوعة بهذه الطريقة تعد إبداعاً عربياً ليس لسواهم مساهمة فيها ، فلم تصل لغيرهم مثل ذلك ، ولو بحثنا في المعلومات التاريخية المتجمعة حول هذه الطريقة لما وجدنا شيئاً لغير العرب فيها[٧٨].

والطريقة الأخرى المستخدمة في الزخرفة الخشبية هي التلوين ، وقد تفوق فيها النجارون العرب كم شهدت بذلك التحف الخشبية الملونة التي وصلت إلينا من انتاجهم بحيث كان اللون يضفي على التحفة الخشبية طابعاً فنياً بارزاً[٧٩].

والطريقة الأخيرة هي التي تعرف بطريقة الخرط ، فبهذه الطريقة يمكن الحصول على تحفة خشبية جميلة وبواسطتها يتم تشكيل الخشب بآلة مسننة أو بالشفرة وهي ابتكار عربي بحق أضافها النجارون العراقيون إلى الصناعات الخشبية[٨٠].

لقد كانت هذه الصناعة منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي لكن تختلف من بلد لآخر . فمثال ذلك .. مدينة بغداد وكانت هذه الصناعة منتشرة ومشهورة فيها .. ويمكن الإشارة إلى أنموذج واحد من بين الأمثلة العديدة وهو منبر القيروان الذي يعد ذا مكانة في عالم الحفر على الأخشاب لأهميته البارزة في مواصلة هذه الصناعة إبداعاً ، والمنبر محلي برسوم نباتية وهندسية وعناصر معمارية وأهمية هذا المنبر تتجلى روعته بأنه من أهم المنابر العربية الإسلامية الباقية إلى اليوم[٨١] (شكل ٨) .

## الزجاج :

وإذا انتقلنا الآن إلى بقية الفنون الزخرفية العراقية فأن الزجاج لابد أن يحتل مكان الصدارة . إذ تؤكد المصادر التاريخية والأثرية على أن الموطن الأصلي لصناعة الزجاج هو بلاد الرافدين ، إذ هناك من الأدلة الأثرية ما يكفي للبرهنة بنشوء صناعة مبكرة للزجاج فيه.

مثل طريقة القطع البارد ، وتعد أول طريقة في صناعة الأواني الزجاجية التي مارسها الإنسان[٨٢] ، والثانية هي طريقة الضغط على القالب[٨٣] . والثالثة طريقة النفخ داخل القالب[٨٤] ، وذلك بنفخ العجينة الزجاجية بواسطة قصبة أو أنبوب داخل القوالب مُعدة إعداداً خاصاً . والطريقة الرابعة طريقة النفخ الحر عن طريق قصبة أو أنبوب معدني . يلتقط في طرفه الثاني عجينة من الاتون . وينفخ في الأنبوب من نهايته الثانية . فيندفع الهواء في وسط العجينة لتتحول ما يشبه البالون الصغير ، وبتحريكه يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل تتشكل من هذا البالون الشكل المراد صنعه[٨٥] ، وقد تقدمت هذه الصناعة في العصر العباسي تقدماً كبيراً . وكانت الأساليب فيما يبدو في فجر الإسلام متقاربة لأنها في بداية التطور والتكوين ، وقد زودتنا الحفائر الأثرية بأنواع متعددة من الأواني الزجاجية . والكسر التي تعود إلى العصر العباسي الأول ، ففي العراق تم العثور على الكسر من الأواني في حصن الأخيضر تعود إلى القرن الثاني الهجري.

وفي عصر سامراء كانت صناعة الزجاج مزدهرة ، وقد تم العثور على كميات كبيرة ترجع إلى القرن الثالث الهجري ، وكانت بغداد مشهورة في صناعة الزجاج أيضاً . وقد أشهر إلى ذلك وإلى أنواعه المختلفة.

وإذا نظرنا إلى الأساليب الزخرفية الإسلامية نلاحظ أسلوب الزخرفة ذو البريق المعدني ، وكانت طريقة التلوين بالبريق المعدني تتم باستخدام الفضة أو أكسيدها . وعرفت هذه الأساليب منذ أواخر القرن الثاني الهجري[٨٦] ، وقد عثر

عليها في مصر سنة ١٦٣ هـ . ولم نستطع أن نشاهد في إيران شيئاً من هذا النوع كالذي رأيناه في مصر وسوريا والعراق .

ومن الأساليب الصناعية التي عرفها العراقيون الكتابة بالذهب على الزجاج حيث كان هذا الفن معروفاً منذ الخليفة المهدي[٨٧] ، كما أن تمويه الزجاج بالمينا كان في العراق أولاً ثم انتقل إلى الأقاليم الإسلامية.

واستخدموا في تلوين الزجاج أكاسيد معدنية متعددة للحصول على الألوان المطلوبة ، لأن لكل أكسيد نوعاً معيناً من الزخرفة اللونية مثل أكسيد النحاس ، وأكسيد القصدير ، وأكسيد الحديد .

وقد تم العثور على قطع في حصن الأخيضر . كما زودتنا الحفائر في سامراء بالعراق على تحف من الأجزاء الزجاجية ، والساند فيها خلو بعضها من الزخرفة بينما البعض الآخر يتسم بالعناية الزخرفية واللونية . وهي على العموم منتظمة الأشكال . نقية الطينة ، ذات ألوان مختلفة ، يغلب عليها اللون الأزرق.

وعلى صعيد الزخرفة فأن التحف الزجاجية في سامراء كانت عبارة عن زخرفة بواسطة القطع ، ونلاحظ من ضروب الزخرفة في سامراء نوعاً ، هو زخرفة الزجاج برسوم مؤلمة من فروع نباتية وهندسية رسمت بالبريق المعدني[٨٨] (شكل ٩) .

وعلى العموم فأن الفنانين العراقيين كانت لهم شهرة واسعة بصناعة الزجاج ، وأما في صناعة التحف الزجاجية فقد اشتهر فيها العراقيون شهرة واسعة واتقنوا زخارفها وألوانها وأشكالها بطريقة تدعو إلى الأعجاب ، وتدل على أن الزجاجين العراقيين كانوا على درجة من المهارة والذوق . وقد كتب في ذلك الهمداني[٨٩] ((قل من عجائب بغداد ما شئت قد اجتمع فيها ما هو متفوق في جميع الأقاليم من أنواع التجارات والصناعات ولهم في الذي

لا يشاركهم فيه أحد الثياب البيض والزجاج المحكم من الأقداح والكاسات والطاسات)).

وتعتبر مدينة سامراء من المدن المهمة في إنتاج الزجاج ، وكان منتوجها يصدر إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي[٩٠].

**الخزف :**

وإلى جانب فن الخط والزخرفة والتصوير والمعادن والنسيج والزجاج هناك فن آخر ساهم فيه الفنانون العراقيون وهو فن صناعة التحف الفخارية والخزفية ، والتحف المصنوعة من هذه المادة وثيقة الصلة بحياة الإنسان منذ أقدم العصور ، وقد بقي الإنسان العربي محتفظاً بهذه الصناعة من حيث انتقاء الطينة وتشكيلها وحرقها وزخرفتها . ثم بقيت محافظة على هذا النمط في العمل والإنتاج . وإذ كان هناك اختلاف ففي الألوان والزخرفة والأشكال وهو أمر طبيعي يمليه التطور المصاحب لهذا الفن أو الصناعة ، أو حالات الإبداع التي تتطلبها الإضافة المستمرة ويعدّها الصانع الماهر.

وإذا أردنا الحديث عن مراحل صناعة الأواني الخزفية فهي أربعة :

الأولى : هي عجن الطين الذي يعدّ المادة الأساسية ، وله أهمية في صناعة الخزف[٩١] ، ثم مرحلة تشكيل الخزف ، وكان التشكيل اليدوي هو البداية الأولى . ويعدّ أقدم مرحلة له ، ثم يتبعها مرحلة أخرى في صنع الخزف هي استخدام القرص المتحرك بغية الدقة في الصنع[٩٢] والشكل .

أما التماثيل فقد التجأوا إلى طريقة الصب بالقوالب ، ثم مرحلة التجفيف للتخلص من الماء الموجود في الآنية المصنوعة . ثم عملية الفخر ، وذلك بأن توضع الأواني في درجة حرارة كافية لحصول المتغيرات الكيمياوية والفيزيائية[٩٣].

وتضاف الزخرفة عن طريق التحزيز والخدش في جدران الآنية أو عن طريق النقش بالألوان وقد أعطى الصانع العربي للألوان أهمية كبيرة في المساحات وإبراز جماليتها بما تحدثه الألوان من خطوط وغيرها.

وكان للعرب فضل في تطوير هذه الصناعة ، فلم يتوقفوا عند تقاليدها الموروثة ، بحيث أصبحت صناعة متميزة ، وكانت في أول أمرها بسيطة ، كأن تكون خالية من الزخرفة أو ألوانها قليلة ، لكن العرب ابتكروا لها أشكالاً وتقنية وزخرفة فأصبحت من الابتكارات التي تسجل لهم ، وهذا ما تؤكده الشواهد الباقية ، والإنتاج الكبير للتحف الإسلامية في المتاحف العالمية من تطوير وابتكارات وإضافة .

وقد عثر على كميات كبيرة من الخزف في مختلف إرجاء العالم من العراق ومصر والشام وإيران وتركيا وغيرها . وهذه التحف قد تتكرر أشكالها وتقنيتها في هذه الأماكن من العالم الإسلامي ، والسبب يعود إلى أن الصانع قد ينتقل في هذه الأماكن ، بحيث يتعذر علينا أن نعطي الهوية المكانية للتحف المصنوعة ، إلا إذا وجد عليها ما يشير إلى أنها صنعت في بلد معين أو المدينة الفلانية .

أما الأنواع ، فأن يقتصر عمل الصناع على نوع واحد ، وإنما أخذوا يبتكرون ويطورون بحيث أصبحنا نرى أنواعاً متعددة وأشكالاً مختلفة ، تدل على ذلك التنوع المستمر في الصناعة .

ومن أنواع الخزف المشهورة ، ذلك الذي يدعى بالخزف المحزز تحت التزجيج . والتزجيج مركب زجاجي شفاف يندمج مع سطح الآنية الفخارية ليكون طلاء معدنياً ملوناً يمنح الخزف طلاء ونعومة ، ويقضي على صفة المسامية فيه[٩٤] . ومن مراكز صناعته مدينة سامراء – العاصمة الثانية للعباسيين – وقد تم اكتشاف اعداد كبيرة من هذا الخزف فيها . ويوجد من

يعتقدون أن هذا النوع من الخزف هو الصيني . وأن العرب أخذوه منهم ، الا أن هذا الرأي لا تؤيده الشواهد الأثرية لهذا النوع ، لما يلمس من الاختلاف من حيث اللون مثلاً فالإسلامي يتميز بألوانه الأربعة الأخضر ، والأزرق ، والعنبر ، والمنغنيزي ، أما الصيني فيقتصر ألوانه على ثلاثة الأخضر ، والعنبر ، والأزرق[٩٥].

أما الزخرفة فالإسلامي يحتوي على زخارف نباتية ، بينما الصيني يحتوي على السحب الصينية والحيوانات ، كما أن الحفر في الخزف الإسلامي أعمق في البطانة البيضاء نزولاً إلى الطينة البيضاء ، وهذا النوع من الخزف انتشر في سوريا ، حيث تم العثور عليه في خربة المنيا وخربة المفجر والرقة. وعرف في مصر ، حيث تم اكتشاف إعداد منه في الفسطاط والفيوم ، وكذلك المملكة العربية السعودية ، وقد عثر على نماذج منه في مدينة الربذة ، وفي فلسطين والمغرب العربي بالرباط والدار البيضاء . وفي أسبانيا عثر على إعداد منه أيضاً[٩٦].

ونوع آخر من الخزف هو ذو الزخارف البارزة ، وقد عرفه العرب ، وبشكل خاص في العراق ومصر . والخزف العراقي يتميز بالتزجيج بلون واحد ، بينما النوع الآخر الذي منشأه مصر فيكون متعدد الألوان .

ولدينا نوع آخر من الخزف يمتاز بتزجيجه المتعدد الألوان ، فالأناء الواحد منه نلاحظ عليه أشرطة متجاورة ، وبقعاً متناثرة على جدار الإناء ، ومن ألوان مختلفة ، قد تكون مخططة أو مقلمة أو بقعاً . وكذلك انتجوا خزفاً يمتاز بسطحة ذي اللون الأبيض ، عليه زخارف هندسية وكتابية مختلفة .

وكان لمدينة الرقة دور في ابتكار نوع من الخزف ، يمكن حصرها في ثلاثة أنواع :

الأولى منها يمتاز بزخارفه البارزة والمخرمة ، والثاني يمتاز بزخارفه المرسومة تحت الدهان الزجاجي ، وتكون المادة باللون الأزرق أو الأبيض فوق أرضية بيضاء ، أما الثالث من خزف الرقة فيتميز بلونه الأزرق على أرضية سوداء .

أن قمة ما وصل إليه فن صناعة الخزف العربي الإسلامي هو الخزف ذي البريق المعدني الذي يعدّ طفرة في عالم الفنون الزخرفية . وهذا ما يؤكده الباحثون العرب والمستشرقون ، وقد كتبوا عنه أبحاث عديدة ، ومؤلفات لما له من أهمية . أما الموطن الأصلي لهذا النوع من الخزف ، فمعظم البحوث تؤكد على أن سامراء هو الوطن الأول لصنعه وابتكاره[٩٧] . لقد استطاع الخزافون العراقيون لأول مرة في تاريخ الصناعة أن يكسبوا الأواني المزججة بريقاً معدنياً ويبدو من واقع الحال أن هذه الصناعة انتقلت من سامراء إلى إرجاء العالم الإسلامي (شكل ١٠) مثال ذلك أننا وجدنا منها في مصر مع أحمد بن طولون بواسطة خزافين عراقيين رافقوا أبن طولون في أثناء حكم أسرته ، فقد وجدوا عدداً منها في الفسطاط ، وبعض المدن الإيرانية في مطلع القرن الرابع الهجري، أخذوا يقلدون الخزف ذو البريق المعدني ، أمثال ذلك مدينة الري ، وكذلك وصل هذا الخزف إلى الأندلس[٩٨].

وهكذا نخرج من هذه الرحلة في عالم الفنون الزخرفية والتشكيلية العربية الإسلامية بصورة واضحة المعالم بينة القسمات عن مساهمات الفنانون العراقيون في تكوين شخصية الفن العربي الإسلامي عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية حيث كان العراق مركز إشعاع لجميع العالم .

## الهوامش :

١. العبيدي، صلاح ، الخط العربي الصوري : دلالة وزخرفة – مجلة بين النهرين العددان (٦١ و ٦٢) ١٩٨٨ ص٧ .

٢. العبيدي، صلاح ، التعليم ووسائله في الآثار العربية الإسلامية – مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد ، العدد (٣٧) ص٩١ .

٣. العبيدي، صلاح ، الخط العربي الصوري ص٧ .

٤. العبيدين صلاح ، مظاهر التوحد في العناصر الزخرفية في حضارة بلاد الرافدين (الفنون الصناعية) وقائع ندوة وحدة حضارية بلاد الرافدين – منشورات المجمع العلمي ٢٠٠١ ص١٧٨ .

٥. أنظر شافعي ، فريد : العمارة العربية في مصر الإسلامية (عصر الولاة) ٦٣٩-٩٦٩ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧٠) ص٤١٧ حول الطرز الثلاث للزخارف الجصية في سامراء .

٦. مرزوق : محمد عبد العزيز : الفن الإسلامي ، تاريخه وخصائصه . مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٦٥ ص١٨٠ .

٧. رجب، غازي محمد : زخرفة الأرابسك. بحث غير منشور ص٦ .

٨. العبيدي، صلاح حسين ، الفنون الزخرفية والتشكيلية – العراق في موكب الحضارة ، الأصالة والتأثير (بغداد ١٩٨٨م) ج٤ ص١٥٠ .

٩. المصدر السابق ص١٥٠ .

١٠. أنظر حول المخطوطات المزوقة في التصاوير في كتاب (التصوير الإسلامي في العصور الوسطى) للدكتور حسن الباشا مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٥٩) ص٩٢ وما بعدها .

١١. أنظر ايتنكها وزن – ريتشارد : فن التصوير عند العرب . ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي (وزارة الأعلام – بغداد) حول مقامات الحرير من ص١١٥ وما بعدها .

١٢. القيسي، نوري حمودي : البطل في التراث – مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ص٩٩-١٠١ .

١٣. الباشا : المصدر السابق ص٧٦ .

١٤. الباشا : المصدر السابق ص٨٢ .

١٥. الباشا : المصدر السابق ص٨٣ .

١٦. ماهر ، سعاد : مشهد للإمام علي ص٣٢٧ .

١٧. ماهر ، المصدر السابق ص٣٢٧ .

١٨. العبيدي، صلاح حسين : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي مطبعة المعارف – بغداد ١٣٨٩ هـ-١٩٧٠م ص١٦٢ .

١٩. ماهر، المصدر السابق ص٣٢٩ .

٢٠. ماهر ، المصدر السابق ص٣٢٩ .

٢١. محمد حسن ، زكي : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية مطبوعات كلية الآداب والعلوم ببغداد . مطبعة جامعة القاهرة (١٩٥٦) شكل ٤٧١ .

٢٢. العبيدي، التحف المعدنية ص٢٣ .

٢٣. ابن الفقيه : مختصر البلدان ص٢٥٤ .

٢٤. دار القطن : محلة ببغداد في الجانب الغربي بين الكرخ ونهر عيسى (أنظر ياقوت معجم البلدان) ج٢ ص٤٢٢ ، ٤٢٣ .

٢٥. الأصطخري ، المسالك والممالك ص٩٣ .

٢٦. الأصطخري ، المرجع السابق ص٩٣ .

٢٧. المقدسي، أحسن التقاسيم ص١٢٨ / الثعالبي : لطائف ص٢٣٥ .

٢٨. المقديس، المرجع السابق ص١٢٨ / الثعالبي ، المرجع السابق ص٢٣٥.

٢٩. العلي، صالح : الأنسجة في القرنين الأول والثاني – مجلة الأبحاث (الجامعة الأمريكية في بيروت) السنة ١٤ الجزء (٤) كانون الأول ١٩٦١ ص٥٤٩ .

٣٠. القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٤٧٩ .

٣١. مجهول : مناقب بغداد ص٢٦ .

٣٢. الأصفهاني ، الأغاني ج٥ ص٢٤٢ .

٣٣. الأصفهاني ، المصدر السابق ج٥ ص٢٤٢ .

٣٤. ياقوت : المصدر السابق ج١ ص٨٥٠ .

٣٥. أبن الفقيه : البلدان ص٢٥٣.

٣٦. ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٥٢٢ .

٣٧. أبن الجوزي ، المنتظم ج١ ص٢٤٤ .

٣٨. أبن الفقيه ، المصدر السابق ص٢٥٤ .

٣٩. أبن الفقيه ، المصدر السابق ص٢٥٤ .

٤٠. المرية : من مدن الأندلس تقع على ساحل البحر وفيها قلعة بناها عبد الرحمن الناصر وبها من صنعة الديباج ما تفوق به سائر البلاد (أنظر المقرني : نفح الطيب ج١//٧٨) .

٤١. مرزوق، عبد العزيز : الزخرفة ص٥٤ .

٤٢. مرزوق، المصدر السابق ص٥٥ .

٤٣. الثعالبي : لطائف ص١٩٥ .

٤٤. الثعالبي ، ثمار القلوب ص٤٢٩ .

٤٥. أبن جبير : رحلة ص٢٠٤ .

٤٦. أبو الفداء : تاريخ ج٢ ص١١١ .

٤٧. البيهقي : المحاسن ص٢٤١ .

٤٨. أبن الفقيه : المصدر السابق ص٢٥٢ .

٤٩. حربي من أعمال بغداد (ياقوت : المعجم) ج١ ص٧١٨ .

٥٠. ياقوت ، المصدر السابق ج٢ ص٢٣٥ .

٥١. الأصفهاني، المصدر السابق ج٦ ص٢٣٦ .

٥٢. الجاحظ : البيان ج٣ ص١١٥ .

٥٣. الأصفهاني ، المصدر السابق ج٦ ص٢٣٦ .

٥٤. الجاحظ، المصدر السابق ج٣ ص٩٩ .

٥٥. أنظر ، أبن سيده ، المخصص ج٤ ص٣٥ . وأبن منظور ، لسان العرب ج٦ ص٤٩ .

٥٦. أبن الزبير ، الذخائر ص٤٥ .

٥٧. النويري، الذخائر ص٤٥ .

٥٨. الثعالبي : ثمار القلوب ص٤٢٩ .

٥٩. أبن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ص٧٩ .

٦٠. أنظر ياقوت : المرجع السابق ج٢ ص٢٤٨ .

٦١. أنظر ياقوت ، المرجع السابق ج٢ ص٢٩٧ .

٦٢. ياقوت ، المرجع السابق ج٢ ص٢٩٢ .

٦٣. ياوقت ، المرجع السابق ج١ ص٤٧٥ .

٦٤. القزويني : آثار البلاد ص٤٤٤ .

٦٥. ديزه جي ، سعيد ، صناعة الموصل : مجلة سومر ، ج١٠ المجلد السابع ١٩٥١ ص٩٥ .

٦٦. الكرملي : الحياكة في العراق ص٢٦ .

٦٧. العبيدي، صلاح حسين : مظاهر التوحد في العناصر الزخرفية ص١٨٦ ..

٦٨. العبيدي ، المصدر السابق ص١٨٧ .

٦٩. العبيدي، صلاح حسين : الفسيفساء في الآثار العربية . مجلة بين النهرين (العدد ٢٩) ١٩٨٠ ص٤٠-٤١ .

٧٠. العبيدي، صلاح ، مظاهر التوحد ص١٨٧ .

٧١. العبيدي، المصدر السابق ص١٨٨ .

٧٢. العبيدي، المصدر السابق ص١٨٨ .

٧٣. مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه مطبعة أسعد بغداد ١٩٦٥ ص١٤٧ .

٧٤. مرزوق ، المصدر السابق ص١٤٧ .

٧٥. مرزوق ، المصدر السابق ص١٤٧ .

٧٦. مرزوق ، المصدر السابق ص١٤٧ .

٧٧. مرزوق ، المصدر السابق ص١٤٨ .

٧٨. مرزوق، القانون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ص١٦٦.

٧٩. حميد، العبيدي ، قاسم/عبد العزيز ، صلاح ، أحمد : الفنون الزخرفية العربية الإسلامية (بغداد – ١٩٨٢) ص٣٣ .

٨٠. مرزوق : الفن الإسلامي ص١٥٠ .

٨١. أنظر حميد ، العبيدي ، قاسم/ المصدر السابق ص٢١ ، ٢٣ – محمد – حسن أطلس الفنون ص٤٣٥ .

٨٢. حميد، العبيدي ، قاسم / المصدر السابق ص١٤٠ .

٨٣. المصدر السابق ص١٤٠-١٤١ .

٨٤. المصدر السابق ص١٤١ .

٨٥. المصدر السابق ص١٤١-١٤٢ .

٨٦. المصدر السابق ص١٥٠-١٥١ .

٨٧. أبو العش، محمد فرج ، الزجاج السوري المموه بالمينا والمذهب من العصر الوسيط : الحوليات السورية مجلد ١٦ ج١ ص٤١ .

٨٨. حميد، العبيدي ، قاسم : المصدر السابق ص١٥٠ .

٨٩. أبن الفقيه . مختصر كتاب البلدان ص٢٥٢ .

٩٠. حميد، العبيدي ، قاسم ، المصدر السابق ص١٥٠ .

٩١. طوالبة ، ضياء الدين : الفخار الأيوبي والمملوكي المدهون والمزجج من موقع دوحلة ، من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر الميلادي- رسالة ماجستير لم تنشر (١٩٩٦) ص١٢ .

٩٢. العبيدي، صلاح حسين : بحث مقدم إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس – ص٣ .

٩٣. بيلنكتون : فن الفخار صناعة وعلماً ص٣٣ .

٩٤. العني، زكية عمر .

٩٥. العبيدي، المصدر السابق ص٧ .

٩٦. العبيدي، المصدر السابق ص٩ .

٩٧. العبيدي، صلاح : الخزف ذو البريق المعدني العراقي وأثره في الصناعة المصرية : مجلة الفتح – العدد (٨) ٢٠٠١ التي تصدرها كلية المعلمين – الجامعة المستنصرية ص١٩ .

٩٨. العبيدي، المصدر السابق ص٢٠ .